

تفكيك حجاب اللغة: مقارنة فينومينولوجية لنص آسيا جبار - الأصوات التي تأسرني -

عبد القادر بودومة*

« J'ai utilisé jusque là la langue française comme voile, voile sur ma personne individuelle, voile sur mon corps de femme. Je pourrais presque dire voile sur ma propre voix. »

Assia Djebar : Ces voix qui m'assiègent
en marge de ma francophonie.
Ed / Albin Michel. PARIS 1999 P. 43

تكشف مداخلتنا عن لحظتين فكريتين مهمتين كثيرا ما غفل عنهما الباحث الجزائري، و لم ينته إلى ما يحمله من أهمية بالغة و التي تكمن في قدرتهما على إيجاد كيفيات شق الطريق نحو إنقاذ الذات الجزائرية من عيائها الفكري وألمها الهوياتي identitaire الذي طالها منذ زمن الدم و الرماد أي منذ التسعينيات، وهما لحظتان مرتبطتان بما ينتجه الأديب الجزائري من أبعاد إنسانية مفتوحة على إمكانات الإنتاج المعرفي داخل نصوصه.

اللحظة الأولى: لحظة إيقاظ، إيقاظ عقل الباحث الجزائري من غفلته عن أرض جد خصبة لإستثمار أرض المعرفي داخل الموقف الفلسفي وهي أرض الأدب التي تحمل نصوصا متعددة و مختلفة خاصة تلك المكتوبة سواء تعلق الأمر بالرواية أو القصة أو الشعر... إذ نكاد الجزم أن القراءات النقدية المنجزة إلى غاية اللحظة لم تحاول الانفتاح على الأبعاد الفكرية، الفلسفية، و حتى العلمية المتضمنة للكتابة الأدبية التي أدخلت من كل عمق وراحت تؤسس لقراءة سطحية أحيانا و متسرعة أحيانا أخرى، قراءة تحاصر المعنى و تسيج المبنى و تأسر حرية الجسد (النص) بخطابات إيديولوجية تتفنن في توزيع الثقافة الصدامية و الصراع مروجة لفكر كارثي دوغمائي¹ بتعبير محمد أركون M.Arkoun، فأوجدت بالتالي ذات جزائرية مهزومة

* مكلف بالدروس، جامعة تلمسان.

¹ Voir Soukhalhal, Rabah, *Le Roman algérien de langue française (1950 – 1990)*, Paris, Edition Publisud, 2003.

لا تأبه للعقل بقدر ما تلتزم برد الفعل، فصارت ذات ارتكاسية réactive و سلبية passive لا تنتج إلا الإخفاقات و الهزائم كما وجدنا بعض الأعمال البحثية المنجزة داخل الجامعة مفرغة من كل حيوية و فاعلية إذ أسهمت هي الأخرى في تكريس هذا المشهد الكارثي و بدلا من أن تعمل على لم الشتات الفكري و لأم جروح الجسد الجزائري، راحت تدير ظهرها له، مكتفية بتباهيها المزيف بامتلاكها أحدث المناهج العلمية الحدائية لقراءات النصوص الجزائرية كالشكلانية، الوصفية، الوظيفية، السيميائية و البنيوية... فاهتمت بقضايا التنظير المتخشب أما اللحظة الثانية : فهي لحظة اليقظة بضرورة الإسهام و المشاركة في بناء عالمية الفكر الفلسفي و أهمية تأصيله داخل الفضاءات المعرفية المنتجة محليا (أي الجزائرية)، إن تأسيس لموقف فلسفي عالمي لا يبلغ اكتماله في اعتقادنا إلا إذا أخذ على عاتقه مسؤولية فهم خصوصية المعرفة المحلية و منه كان نداءنا الدائم المصر على ضرورة الالتفات إلى ما ينتجه أرباؤنا من نصوص، نرى أنها كانت الوحيدة التي تمكنت من الانفتاح فعليا على معاناة الإنسان الجزائري، و من أن تشكل الصورة الحقيقية لذاته المتأزمة، تحمل طبقاتها تصدعات طالت هويتها و فكرها و ثقافتها، تشققات وسعت من هوة وفجوة الشقاق بين الجزائريين. فما كتبتة اليد الجزائرية منذ بدء التراجيدية الوطنية يفوق ما أبدعته منذ الاستقلال من نصوص، طبعاً لا يتعلق الأمر بالنسبة لنا بمجرد تضخيم كمي و إنما يرتبط بوثبة عظيمة على مستوى الكيف حيث قدرة النص الفائقة على الإنتاج، لقد أصبحنا أمام كتابة عارفة *une écriture savante* يختلط فيها المعرفي بالجمالي والايثيقي *éthique* بالأنطولوجي *ontologique*، فاخترنا مفهوما يميز هذا النوع من التقارب والتي تستمد أصلاً نيتها *intention* من الفلسفة القارية من جهة و من الكتابة الأدبية الجزائرية من جهة أخرى، رافضة كل كتابة تؤسس للخطابات المفحمة و المضخمة التي تدعو إلى الإعلاء من شأن هويات أرشيفية *Les identités archiviées*، تلك التي ساهمت بدورها في تعميق الهوة بين أبناء الوطن الواحد.

نسائية الكتابة وبدء التفكيك

إن اكتشافنا للأفق الإيتيقي-أنطولوجي داخل النص الأدبي الجزائري سيحقق بدوره فتوحات مهمة على مستوى فهم حقيقة الذات الجزائرية، و لأجل ذلك اخترنا لأنفسنا نصوصاً روائية كتبت تحديداً في زمن الدم و الرماد لاعتقادنا أنها

الفترة الأكثر خصوبة على الرغم مما حملته من مأساة يصعب علينا حصر أسبابها ونتائجها بصورة كلية، الفترة التي لو قمنا بإحصاء النصوص الأدبية التي كتبت فيها لوجدنا أنها تفوق كما أشرنا ما كتب منذ فترة الاستقلال، بالإضافة إلى ذلك فضلنا الاشتغال على حقل معين من الكتابة الأدبية الجزائرية و المتمثل في الكتابة الأدبية النسائية المنجزة داخل اللغة الفرنسية، و بعد الحفر الجينيولوجي و التنقيب الأركيولوجي استقر عملنا على نص محدد، نص يقترب من اكتمال نضجه، نص مكتوب بجسد امرأة تحمل همها الأنطولوجي وهاجسها الإيتيقي، إنه نص آسيا جبار و مثل هذه المهمة الفلسفية لا يمكن أن تتحقق إلا عبر الذهاب إلى حيث مناطق تكون في جوهرها لا-فلسفية Non-philosophique إنها الحركة القادرة على منح للجسد الفلسفي بهاء المفقود وأن أي حديث عن نهاية أو موت للفلسفة سيكون مجرد لغو لا طائل منه، فنحن لا نعتقد بخطاب يقول النهايات و يؤمن بدنو الكارثة و إنما نؤكد أنه ثمة صور من التفكير عرفت أفولها و تركت فرصة تواجد لصور تفكير أخرى وهكذا تبقى متوالية الكشف و اكتشاف فضاءات إنتاج الصور المعرفية مفتوح على اللانهائي، فالذي انتهى بالنسبة لنا هو أسلوب معين من التفكير و ليس التفكير عينه، أسلوب كان قد تبناه فلاسفة بلغوا بالفلسفة الأولى لحظة الاكتمال و جاء دور تناول الخطاب الفلسفي بكيفية مغايرة لأجل رؤية عمل فلسفي هو الآخر مغاير و كثيرا ما أكدنا على ضرورة الذهاب بصورة أدق إلى مجالات الأدب و النقد الأدبي آخذين بتجربة جاك دريدا Jacques Derrida و ما تمنحه إستراتيجية التفكيك من إمكانات اختراق خطابات المركز فإذا كان دريدا قد أنجز تفكيكا لمركزية اللوغوس و لمركزية الصوت Homocentrique فلربما سيكون من الضروري إنجاز و داخل لغة مخالفة (لغة محلية) تفكيكا لـ " مركزية -الكتابة و لمركزية الأنا- التقليدية، أنا تعاني بؤسا داخل لغتها. و إن اختيارنا للتفكيك باعتباره إستراتيجية لقراءة و لكتابة نصوص جديدة داخل نصوص تقليدية لا يقوم أبدا على المحاكاة و التقليد السلبي لتلك القراءات المنجزة في الضفة الأخرى، ذلك أن التفكيك في ذاته يمتنع عن أن يكون تفكيكا أي يمتنع عن الكلام داخل اللغة الواحدة، فتفكيك نصوص آسيا جبار إنما يتم داخل لغتنا (أي لغة الانطلاق) التي تحاول الذهاب بها إلى لغة الوصول، لهذا نصر على أهمية امتلاك لغة الأصل من دون قداسة، و لا الإدعاء بأنها خالصة و طاهرة إذ ليس ثمة في اعتقادنا وجود لغة محضة لكي نتمكن لحظتها من الحديث بلغة الوصول و عدم السعي لامتلاك لغة واحدة، إن التفكيك يبعدها عن الجدل الهيجيلي القائم على صراع منطقي يؤسس للمواجهة بين الأنا و الآخر إنما ينجز في إطار الأنا - أنا ذاته، لأنه تفكيك يكشف عن الوجود أنا-

تقليدية لا تزال تهيمن و تحتكر لغة تعتقد بأنها الأصل، أنا-تقليدية تعيش سلبيتها بكل ما تحمله السلبية من دلالات العجز و الهزيمة كما تكشف في الوقت ذاته عن وجود أنا-مقاومة تفتقد لآليات المقاومة لم تتمكن بعد من الحسم في هيمنة مركزية الأنا-التقليدي و منه يكشف التفكيك المنجز داخل لغتنا، على أنه ثمة غموض يحمل ألغازه، فتفكيك أي نص من نصوصنا المحلية هو بمثابة إعلان عن ضرورة البدء في إنتاج المعنى من خلال وعي قصدي بإمكانه أن يعي التناقض أو التعارض أو الغامض في النص ذاته، مع العلم أن كثيرا ما يغيب عن النص الوعي بما يقوله. إنه لا يقول ما يعيه فهو الممتنع عن قول المعنى، تاركا للمفكك فرصة بلوغ معناه لحظة إنتاجه له. وهذا ما يجعل للتفكيك امتياز جذري على خلاف الممارسة الهرمينوطيقية herméneutique التي تحاول البحث عن المعنى المفقود وتفترض وجوده داخل النص و منه يكون من السهولة بمكان إيجاده عبر ممارسة القراءة، إن الهرمينوطيقا تسلم سلفا بمعنى معطى داخل النص، في حين التفكيك لا يقر بذلك، إذ ليس ثمة معنى بإمكان النص أن يمنحنا إياه، لأن النص هو ما يتعذر عن التحديد و التعيين، فكل نص مشكل من نصوص لا متناهية من طبقات نصية، النص يحمل تناصيه مما يمكنه أن يحظى بامتياز ما نسميه ب: فو-نصية hyper- textualité ممارسة تناصية في الجمع تجاوزا كما هو مألوف لدى جماعة نظرية النص الذين يصرون أن النصية textualité تتم داخل تنضيدات لنصوص عديدة، فالنص الذي يعترف به التفكيك هو النص الذي يرجع نفسه، و يحيل إلى داخله ما هو خارج النص، كل نص هو بمثابة ميتا-نص Méta-texte أي نص كلي، إنه اللاحسمية In-décidabilité المنفتحة على إمكان اللاممكن، Le possible de l'impossible إذ لم يعد مجديا القول أن اللغة تقيم داخل الوجود بل صارت الوجود ذاته جاعلة منه وجود نصي. هنا تكمن بالنسبة إلينا أصالة التفكيك المرتبطة بمفهوم الاكتشاف invention فهو أي التفكيك إما أن يكون اكتشافا أو لا يكون إنه لا يطمئن للإجراءات المنهجية بل نجده دائما يشق لنفسه طريقا، إنه سير ووسم. إنه ليس ثمة منهج méthodes يقول دريدا، كل ما هنالك الطريق² و كتابة التفكيك لم تكن أبدا غاية في ذاتها بإمكانها أن تعرف اكتمالها بل تنتج على الدوام قواعد لامتلاكها، قواعد لإمكانات جديدة و لا يتوقف عن السير عندما تحصل له الطمأنينة النظرية بل انطلاقته تلزمه بحركة إثباتيه، إن كل تفكيك إثباتي يعيد باستمرار اكتشاف المستقبل³ إنه (أي التفكيك) حركة لا تعرف القرار و الاستقرار بقدر ما يندفع بنشوة أوروبية مفرطة

² Derrida, Jacques, *Moscou aller-retour*, Paris, Edition de l'Aube, 1995, p.134

³ Derrida, Jacques, *Psyché, l'invention de l'autre*, Paris, Edition Galilée, 1999, Tome 01, p.39.

نحو الفرار و الاستنفار، كثيرا ما أكد دريدا أن كل تفكيك هو لا-تفكيك، تفكيك يفكك التفكيك عينه، إنه ممارسة مفتوحة و الغرض من هذا الانفتاح اللا-نهائي الإبقاء على إنتاج المعنى طبعاً الأمر لا يتعلق أبداً بعدمية nihilisme سلبية و لا بشكوكية scepticism نسكية و إنما هو الإثبات الجذري على الاكتشاف و إعادة الاكتشاف للاكتشاف ذاته، إذ لم يعد في اعتقاد دريدا ما يتم اكتشافه و إنما كل ما نحن مطالبون به لحظة الذهاب إلى التفكيك أن نعتقد بأننا سنكتشف الاكتشاف نفسه، اكتشاف مكرر، إن التفكيك هو اكتشاف للاكتشاف⁴ و هو لا يطمئن للإجراءات المنهجية، يشق بأناة و صبر طريقه المفتوح على كل الإمكانيات، كتابته ليست منحازة و لا تستقر أبداً عند حدود الطمأنينة، التفكيك لا شيء يقول دريدا، و لهذا لم يكن يوماً منهجية و لا مذهب واضح المعالم يمكننا من ممارسة أسلوب ما على نص يخطئ عن حقيقته⁵، ليس التفكيك ممارسة سلبية قائمة على خلق بؤر للصراع و المواجهة بل نكاد الجزم أنه لن تقوم له قائمة إلا بفضل المحب الحب هذا اللا-متجلي، المقيم حيث أفق اللانهائي الراض الإعلان عن نفسه، إنه اللغز الذي يرتب مواعيد اللقاء الأول و الذي يفضل الإبقاء على الانتظار مرجئاً ومؤجلاً أي مفتوح على الانتظار عينه، هكذا يبدو هاجس آسيا جبار صوت ينتظر الانتظار ذاته⁶ إنها تترقب تشكل اللغة، اللغة القادمة La langue à venir اللغة الراقصة التي تتداخل فيها لغات ثلاث: اللغة البربرية، اللغة العربية، و اللغة الفرنسية.

كتابة اللغة... اكتشاف الجسد

إن لحظة اكتشاف الجسد هي اللحظة التي يسبقها اللقاء بالآخر، لقد حدث اللقاء منذ الطفولة، عبر لغة الأخر التي منحها إياها الأب، إن لغة الأخر هي بالنسبة إلى آسيا جبار لغة الأب، هبة تأتي دائماً لتضعنا أمام نداء إثبات الذات، و شق الطريق أمامها قصد بلوغ إعادة اكتشاف الذات لقد كان والد آسيا جبار يحترم الفرنسية أكثر من الفرنسيين أنفسهم لهذا تجعل منها لغة الأب، و في مقابل هذه اللغة ثمة لغة أخرى هي لغة الام اللغة المنهزمة التي لا تزال تعيش انكساراتها في صمت اللغة الأصلية التي تهيمن عليها أنا مركزية مجهولة الهوية، غير محددة المعالم أنا-تقليدية تنكر عليها أحقية ممارسة الكتابة لأنها لا ترى فيها، أي الكتابة

⁴ Voir Derrida, Jacques, Ibid, opcit, p. 45

⁵ Derrida Jacques, dossier, in magazine littéraire, N° 430, Avril 2004.

⁶ Une voix en moi, même pas ironique dans l'autre.

Je suis en attente « Voir Assia Djebar : la disparition de la langue française », Paris, Edition Albin Michel, 2003, p. 33.

إلا ممارسة ذكورية خاصة بالفحولة. فبين لغة أصلية جريحة ترابط أمكنة الذاكرة و بين لغة متوهجة بحرقه شعريتها و بما تحمله من ارث معرفي حي لا يزال فاعلا ستختار آسيا جبار اللغة الفرنسية⁷: "أنا كتابة امرأة وليس لدي سوى كتابة واحدة، أي كتابة فرنسية. فأنا أقدم نفسي دائما لأول وهلة ككاتبة، كروائية لا تحمل إلا لغة واحدة هي اللغة الفرنسية⁷. تكتب آسيا جبار لغة غير لغتها تجد حضورها في حضورها. طبعاً الأمر لا يتوقف على جعل الكتابة مجرد هوية، بقدر ما هي تجربة للتحويل الدائم. والتوق نحو الإنعتاق من الأصوات التي تأسرها، أصوات أبناء بلدها. إن الآخر يعكس بالنسبة إليها فرصة بلوغ الحلم الأمل. سواء كان هذا الآخر بعيداً عنها أو قريباً منها لن يكون إلا مخلصاً مانحاً الكيفية التي عبرها تتمكن من شق طريقها نحو لغة موعودة، اللغة المنتظرة": داخل الانتظار أجد نفسي انتظر الانتظار ذاته. عندما منح الآخر لآسيا جبار لغته، تمكنت بذلك من تحويلها إلى حجاب تتوارى من خلالها عن أعين أولئك الذين يعانون اقتصاداً جنسياً رهيباً. إنها لغة الآخر الذي لا يزال يعدها بالاحترام داخل ضيافة لا-مشروطة. وهذا ما تؤكد عليه حينما تشير بأنها سارت محترمة من قبل مجتمعها حينما كتبت داخل اللغة الفرنسية لحظتها تمكنت من محو جذرية الخطاب الذي يجعل من الآخر مصدر الشر المطلق و أنه لا يأتين منه إلا الخراب والدمار. لن يغدو الآخر مع آسيا جبار ملتبساً و لا غامضاً ومنه نكون مع آسيا جبار أمام ضرورة إعادة النظر في فهمنا وقراءتنا للغرب. ملزمة ضرورة التفكير في آليات جديدة تمكنا من تأكيد ذاتنا خارج منطلق المواجهة و الصراع. كما تصر آسيا جبار في آن معا على إعادة اكتشاف المرأة التي تعبر عن صوتها داخل صمت الآخر (داخل صوته) إذ وعلى خلاف ما يؤكد عليه رولان بارت، بأن الآخر هو دائماً الغامض و الحامل لأسراره⁸، وجدنا آسيا جبار تجعل منه الأنا المنحدرة منه جينياولوجياً، هو من يحمل التباسه و غموضه مانعاً عن الآخر الأحقية في اكتشاف مفاتيح أسراره، أنا تقليدية تهشم الهوية و تسم اللغة و تقوض الكتابة، جاعلة منها حكراً على جنسه فقط، هذا ما جعل حسب آسيا جبار اللقاء مع الآخر أمراً ضرورياً، فهي فضلت الذهاب إليه حينما بدأت الدولة الوطنية الشاعرة بانضمامها في أول امتحان لها في تأميم اللغة و الهوية، فالإقصاء و النبذ و التهميش بدأت مع محاولات التعريب المجانية و المتسعة، لهذا أجد موقف آسيا جبار من اللغة العربية إنما يرجع أساساً إلى

⁷ Voir Djebar, Assia, *Ces voix qui m'assiègent*, Paris, Edition Albin Michel, 1999.

⁸ أنظر ادوموند، جابيس، *أسئلة الكتابة أو حوار الفلسفة و الأدب*، ترجمة: إدريس كثير و عز الدين الخطابي، فاس، منشورات دار ما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، 2003، ص.ص. 20-21.

موقفها من التعريب و ليس من اللغة ذاتها، لاحظتها رسمت لنفسها استراتيجيات شقت أمامها طريقا يمكنها من الانفلات من أنا مهيمنة، و لم تر من سبيل لتحقيق هذه المهمة إلا عبر الكتابة داخل لغة الآخر، جاعلة منها اللغة الوحيدة القادرة على تحقيق حلمها في التحرير لكن ما الذي يتبقى حينما نكتب داخل لغة الآخر و نتخلى عن لغتنا المحلية؟ ما الذي سيكون عليه الأمر لحظة امتلاكنا للغة واحدة هي ليست لغتنا؟ هل سنكون أمام فقد للغة الأصلية لحظة الكتابة داخل لغة الآخر هي نفسها تمثل فقدًا آخرًا؟ إننا أمام فقد *disparition* مضاعف، إن آسيا جبار تجد نفسها في وضعية جد حرجة حيث يختلط عليها الأمر حتى و إن وجدناها و بصلاية تتبنى لغة الآخر التي تكتب داخلها، فكثيرا ما تقر بأن التصور بالقد مرهون بعدم التواجد بداخلها إلا أنها تؤكد بأن اللغة الفرنسية تشكل خطرا عليها وفي الوقت ذاته نلمس لديها نوعا من الحميمية للعودة إلى الكتابة باللغة الأصلية على الرغم من عدم التواصل معها، فعلاقتها بها لا تزال متوترة توتر يحمل أنطولوجيته الشعرية " أن أكتب هذا يعني أن أسير وأن أمشي مشية جدتي، المشي كتابة و هو الوحيد الذي يجعلنا نعلن عن تواجد صوتها حتى و إن كانت الأداة غير أدواتها.

كتابة الجسد ... [اكتشاف] حجاب الصمت

اللغة في الجمع لن تكون اللغة الجزائرية إلا تعددا، و أن أي حديث عن هوية بعيدا عن هذا التعدد حديث لا طائل منه، الجزائري و إلى يومنا هذا لم يمتلك بعد لغة واضحة تمكنه من التفكير والإبداع داخلها أو على الأقل لغة تمكنه من إنجاز تواصل قائم على التبادل و العطاء، إذ في غياب مؤسسات لا-سياسوية تفكر في هذا الوضع المأساوي لن يكون إلا الضياع حليفنا، إن المجتمع الجزائري تاريخيا مسكون بلغات ثلاث حسب آسيا جبار، و إنه خارج هذه اللغات لا يمكن أبدا حل سؤال الهوية الوطنية.

اللغة الأولى: تلك التي ورثناها في الفترة البربرية، لغة قديمة، لغة يوغرطة، ذات أصول ليبية *libyque* و هي في الغالب لغة متمردة ومتوحشة، اللغة الثانية: لغة الكتابة، لغة الكتاب المقدس والصلوات الخمس، لغة الرسول محمد في كهفه، يستمع و يرى جبريل، إنها اللغة العربية، أخت الدارجة، اللغة الثالثة: و هي لغة سادة الأمس و الذين انتهى بهم الأمر إلى مغادرة الوطن بعد التواجد فيه لمدة طويلة، رحلوا و تركوا ظلالهم على هذه الأرض، لنقل أنها لغة فرانك⁹.

⁹ Voir Djebar, Assia, *Ces voix qui m'assiégent*, Paris, Edition Albin Michel, 1999, pp. 54-56

و لن يتم التأسيس لأية هوية إلا عبر الإقرار بالاختلاف الحاصل داخل الهوية عينها، حينما تختلف الهوية، إن هويتنا هي الاختلاف عينه، الاختلاف المؤسس للذات الجزائرية، اختلاف رحيم، اختلاف مرح، يقيم حيث التعدد اللغوي، أما اللغة الرابعة المشكلة بعد أن يحدث مزجا انطولوجيا و إيتيقيا في آن معا بين الثالث اللغوي، تمنح لها آسيا جبار تسمية " اللغة الراقصة " لغة الجسد، ترى فيها اللغة القادرة على إبانة هوية هذا البلد، لغة الجسد من تعدد اللغات، ليس ثمة حساب أو تعداد للغة و ما الجمع إلا هوية يميز كنه الذات الجزائرية و لغة الجسد هي دوما لغة الكتابة، فحينما تمسك اليد باليراع لن تخط و لن ترسم إلا ترنحات و شطحات و جنون الجسد، فالاختناق، الترنح، التيه، الجنون، الوثب... هي بمثابة توصيفات لجسد المكتوب برقصاته، الجسد باعتباره لغة لدى آسيا جبار، لغة الجسد هي هوية هذا الوطن، هوية جوهرها الماهوي eidétique هو الاختلاف، فالهوية هي عين الاختلاف. الاختلاف مع/ضد الذات في آن معا هذا ما توعدنا به آسيا جبار وهي تنجز كتابة حول الكتابة، إن الكتابة غياب يدعو إلى الكلام، يشجع و يحدد جوهر الكتابة ويكون في العمق تحركها النابض بالمعنى الذي يقصده مشال دو سارتو Michel de Certeau في مقدمة عمله الموسوم بـ: ¹⁰La fable mystique تدرج الكتابة في فضاء عدم التلاقي بين الكلام و الواقع، بين المعنى و اللامعنى، بين المتجلي واللامتجلي والشيء الذي يسمح لنا بالسكن إستعاريا فيما هو خارجي محض، خارج اللغة حيث لا يوجد إلا النص وحيث ندرك أن تمديد علاقة آسيا جبار بالكتابة كان أقوى من إبراز علاقتها باللغة الفرنسية حيث حملت هذه العلاقة بالنسبة لها بعدها الإيتيقو-أنطولوجي، كتابة تقبل باللغة كـ: "حجاب" écriture comme voile تمارس التخفي القصدي أي المواردة escamotage أي تجلي اللامتجلي، والحجاب الذي اختارته آسيا جبار لم يكن مركزا بقدر ما كان هامشا لأن الهامش بصمة لها متسع من حرية الحركة والسير في حين يعرقلها المركز من فرط هيمنته وإكراهات الممارسة على جسدها من قبل أولئك الراضين لأحقيتها في الكتابة، لهذا اختارت الهامش.

Sur les marges de la langue à traverser et à inscrire ce serait la seule marche, notre seul mouvement profond au creux même de la langue.

En action, les mots qui s'écrivent et qui se crient au-dessus de vide du vertige¹¹.

¹⁰ Voir De Certeau, Michel, *La fable mystique*, Paris, Edition Gallimard, 1980.

¹¹ Voir Djébar, Assia, *Ces voix qui m'assiégent*, Op.cit. , p. 28.

آسيا جبار لا تقدم نفسها باعتبارها كاتبة بلغة معينة، اللغة في بعدها الهوياتي identitaire المدافع عنه داخل أنظمة الخطابات المسيجة تارة باسم قومية هشة وتارة أخرى باسم حداثة رثة، هوية جبار هي اللاهوية، إنها الكتابة الممارسة داخل لغة اختارتها لأنها رأت فيها نموذج الاحتجاب الذي يمكنها من الانفلات من أعين الرقباء .

«Je suis femme d'écriture, j'ajouterai presque sur un ton de gravité et d'amour ; je n'ai qu'une écriture celle de la langue française avec laquelle, Je trace chaque page de chaque livre¹²».

إن اللغة الفرنسية هي لغة العبور والاختراق passage et transgression لم تكن أبدا مجرد لغة للتواصل مثلما يعتقد الألسنيون، وإنما هي العنصر الأنطولوجي القادر على أن يكشف وبصورة جذرية معاناة الكاتبة. تفضل آسيا جبار الإقامة داخل اللغة الواحدة، اللغة الأصلية، لكن في السكنى يقيم بدوره التعدد اللغوي الكفيل بإبراز هوية هذا البلد. إن قرار آسيا جبار الاضطراري كان ضروريا، كان لابد أن تفر إلى لغة غير لغتها الأم، اللغة الأصلية لكن هل ثمة فعلا لغة أصلية ؟ إن وهم الأصل هو ما يورط الكاتب في مأزق الإيمان بقداسة اللغة، كل قول بلغة أصلية، لغة محضة هو قول يحمل زيفه، ففي البدء لم يكن بدء وإنما كان اللا-بدء، إن قرار آسيا جبار هو نوع من التخفي، خفاء الصوت وذلك عبر تفضيلها الحفاظ على نفسها مرتدية حجاب اللغة، المرأة هنا تنسج أنوثتها عبر لعبة البينولوجية la ruse pénolépéenne لكن وإن كانت بلا مقاومة فلأنها احتفظت لنفسها ما يجعلها أكثر قوة، لقد أبتت على الحقيقة وذلك عبر حفاظها على الحجاب الذي من خلاله تحدث لها المواراة القصدية منفلتة من مركزية الأنا، مركزية لم تكن أبدا مؤسسة فكريا بقدر ما كانت مجرد وهم، إن لعبة النسج tissage يقول دريدا هي لعبة بينولوجية، اللعبة الرابعة التي تنسج نصا وعبر النص تنسج المرأة أنوثتها، هي ذي حقيقة الحجاب الذي تتخذ منه المرأة عنصر الاختفاء والتواري مفضلة الحجب والتستر دون فرض أو قيد، دون سلطة أو شرع¹³. الكتابة هي حجاب الصمت. أكتب لكي لا أصمت، فأنا أكتب هذا يعني أن نكتب نصا يصير أدبا، إننا في أول الأمر لا نكتب أدبا ولا فلسفة، إننا لا نكتب شيئا إننا نكتب فقط الكتابة، الهوية ليست مجرد ورق ولا مجرد عرق ولا حتى مجرد دم وإنما الهوية هي قبيل كل شيء الكتابة، وإذا كنا في الغالب نجعل الكتابة للتواصل فإن آسيا جبار جعلت منها أداة للتحويل transformation. الحجاب الذي نتحدث عنه من هوية الكتابة وليس من هوية اللغة، ذلك لأن كلا وحجابه

¹² Voir Djebar, Assia, Ibid, p. 42.

¹³ Voir Jacques, Derrida et Cécous, Hélène, *Voiles*, Paris, Edition Gallimard, 1997, p. 27.

ومنه كان لكل واحد منا كتابته، لذا تسبق الكتابة عندنا اللغة، إنها تقيم حيث الكتابة معبر عنها في الصوت الممتنع عنه أحقيته في التعبير عن كيانه ثم تحضر اللغة كلحظة للتواري والتستر وهذه اللحظة تجسدها حسب آسيا جبار اللغة الفرنسية، ويبدو أن لفظ الحجب voilé مرتبط عليه بلفظ اللا-حجب dé-voilé وهنا تكمن الحقيقة الضائعة والتي معها تبرز الكتابة الجبارية كلحظة محاولة بعثها من جديد. إن الحجاب هو هذا التفريق séparation في الاصطلاح الليفيناسي (نسبة إلى ايمانويل ليفيناس E.Lévinas¹⁴)، المعطى من قبل الإله ون كل عطاء donné هو بمثابة أمر ordonner إن حجاب آسيا جبار لا يهب لنا شيء، إنه كشف عن اللا-كشف، إنه حقيقة اللا-حقيقة، حجب دائم أي لا-نهائي وفي الحجب ثمة كشف مستمر voiler c'est dévoiler، فبقدر ما تم الحجب بقدر ما كان اللا-حجب والحديث عن الذات خارج لغة الأجداد La langue des aïeux يعني لا-تحجب، طبعاً لا يتعلق الأمر بالخروج النهائي عن لغة الطفولة قصد إحداث نفي مطلق، إن الحجب هو أيضاً بمثابة الحدث الذي يصير مثلما تشير إليه اللغة العامية "خله عاري" إن هذه العبارة ترجع بالتحديد إلى لغة الغازي إذ ومنذ أزيد من قرن وهو يستحوذ على الكل ما عدا شيء واحد لم يتمكن منه، جسد المرأة، فوحده مثلما تؤكد آسيا جبار لم يتعرض للمصادرة من قبل المستعمر، وهذا يرجع إلى قدرة المرأة على التخفي، فالحجاب كان ولا يزال منعا عن العدو من ملامسة جسد المرأة، فنحن لا نرى ولا نسمع الحجاب وإنما نلمسه، فالحجاب هو ما يمتنع عن الرؤية، وحدها المرأة انتصرت على عدو الكتابة لكونها لم تمنح فرصة تسمية ما جاء لأجله، فلاحتماب يحرمنا من التسمية، إنه اللا-تسمية لكن ما الذي يعنيه شيء ما نقدم عليه من دون أن يحمل اسماً؟ إن في عدم تسمية الفعل إرجاء له، وها هنا بالتحديد يقيم الاختلاف النسائي. إن المرأة تقلق وتزعج إنها كائن ترفض أن تكون مجرد متفرج وتصر على أن تغدو الفاعل وفي آن معا ترفض أن تكون موضوع الفرجة ولقد مكنتها الحجاب من أن تقف أمام الآخر القادم من الضفة الأخرى غازياً، من أن تحرمه من متعة الرؤية والاكتشاف:

Confirme le rôle du voile comme instrument de l'expression féminine, ici la ré- instance passe par une stratégie du non-regarde qui nie la victoire française elle-même, l'indigène même quand il semble soumis n'est pas vaincu, ne lève

¹⁴ عن فكرة التفريق séparation، أنظر العمل الرئيسي لايمانويل ليفيناس

Totalité et infini, Paris, Edition La haye Martinus Nijhof, 1961, poche essais, 1990.

pas les yeux pour regarder son vainqueur, ne le reconnaît pas, ne le nomme pas¹⁵.

تحاول آسيا جبار أن تنجز خطابا حول الاحتجاب عبر غيرية اللغة (الحجاب) إن الاحتجاب ملاذ جميل لكن اللا-احتجاب فرار مقيت ومرعب، كل كفن linceul يلخص جوهر احتجاب ما، هكذا لا تجد آسيا جبار أي قلق أو توتر وهي نتيجة نحو آخر اللغة L'autre langue وتستعيرها بكل ما تحمله كلمة الإغارة من استعارة لكن هذا الكفن هو بمثابة تجلي لما ينتظرها لحظة العودة إلى أولئك الذين يسعون من أجل إقصاءها، الكتابة ستكون بالنسبة لآسيا جبار الذهاب من دون التفكير في الرجوع، إنها ضد-حنين anti-nostalgie إلى وطن يوزع سياسته ورجال دينه خطابات الوهم، خطابات الهزيمة والانكسار، إن آسيا جبار لا تضطرب حينما تضطر للذهاب إلى حيث الضفة الأخرى، إلى حيث الأنا-الأخر P'autre-moi لكن قد يحزنها ما آل إليه وضع الوطن من دمار وخراب، والرعب كل الرعب إلى ما ينتظرها لحظة العودة إلى أرض الدم والرماد، يهيب لها أبناء وطنها كفنا في وطن ينسج باستمرار كفته، ومنفى يعدها باستمرار بالموت، فلا الذهاب يخلصها ولا الرجوع ينقذها فكل فرار يقيم حيث اللا-استقرار وكل قرار سيكون مصدره الاستنفار. إن المرأة هي عين الإقامة لهذا لا تجد لنفسها أية إقامة، فإذا كانت السكنى habitable فهي تقيم من دون سكنى إن الحجاب الذي تتحدث عنه آسيا جبار ليس مجرد حجاب الاختفاء وإنما هو بالإضافة إلى ذلك حجاب الإيحاء، فهو على الرغم من كونه يمنع كل رغبة فهو أيضا حجاب شامل يخدش مباشرة رغبة الرجل، فهو حينما يفرض الحجاب على المرأة إنما يمنع نفسه من رؤيتها، إنه يحرم نفسه منها، يقمع رغبته بصورة إرادية فتصير لحظتها المرأة رائية لا مرئية، وكأنه بعمله هذا كان ولا يزال يعاقب نفسه. حينما يحرمها من رغبة الرؤية لهذا يصير حجاب المرأة لا-حجاب بالنسبة إليها وإنما هو حجاب على الآخر إذ كيف يعقل أن تتمكن آسيا جبار من الكتابة داخل مجتمع يمنع عنها هذا الامتياز ويريدها أن تصمت؟ إنه حينما تعلن المرأة الجزائرية تقول آسيا جبار عن بدء مباشرتها تجربة الكتابة تكون معرضة للإقصاء من قبل مجتمعها، نحن نعلم أن العديد من النساء يكتبن داخل اللغة الفرنسية لأنها منحتهن إمكان التحرر، تحرير أجسادهن أي أن يحتجن وعندما تريد المرأة الجزائرية التعبير عبر الكتابة فكأنها تحاول إنجاز تجريبية حول هذا الإقصاء، ففي الواقع المجتمع يريد الصمت أي إنه يريد أن تصمت¹⁶.

¹⁵ Voir Djebar, Assia, *Femme d'Alger dans leurs appartements*, Paris, Edition Albin Michel, 2002, Edition des femmes, 1980, p. 69.

¹⁶ Voir Djebar, Assia, « Entretien », in *Le monde* 29 mai, 1982.